قمة القمم في بغداد

محمد النقاش

في عام ١٩٥٧ كانت بغداد مرشحة الامبريالية العالمية كي تكون عاصمة حلف يجمع أكبر عدد من دول الشرق الاوسط تحت مظلتها ، تحقيقا لما عرف آنذاك بمبدأ ايزنهاور (رئيس الولايات المتحدة) القائل بملء الفراغ شرقي قناة السويس ، ذلك الفراغ الذي أحدثه جلاء القوات البريطانية عن المنطقة ، وما تلاه من تأميم لشركة القناة العالمية ، بحيث لم يبق هناك من يضمن حراسة المصالح الاوروبية ـ الاميركية ، وفي طليعتها النفط وطرق المواصلات بين القارات الثلاث .

وهبّ العرب التقدميون لمحاربة المشروع الرامي الى اعادة النفوذ الغربي من الشباك بعد خروجه من الباب . وقد نجحوا في احباطه بل لم تلبث الرجعية العراقية الداعية له أن انهارت بفضل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وانهار معها حلف بغداد أو ميثاق بغداد كما كان يدعى في تلك الايام .

تم ذلك ، وعلى رأس حملة المكافحة لهذا «الميثاق» مصر بقيادة جمال عبد الناصر .

وفي الثاني من تشرين الثاني عام ١٩٧٨ ، أي بعد احدى وعشرين سنة ، عقد مؤتمر قمة عربية في بغداد ، بحضور عشرين دولة عربية ومنظمة التحرير الفلسطينية التي تمثل شعب فلسطين ، لمكافحة خطر لا يقل عن خطر حلف بغداد الاستعماري ، أو قل يفوقه ويتعداه . وكان الغائب الوحيد عن هذا المؤتمر مصر بقيادة أنور السادات ، لسبب بسيط هو انها لم تدع اليه . وربما لو دعيت لما جاءت ... وذلك لانها بفعل قيادتها الحالية منشأ الخطر وموطنه . فهي ، بحجمها الضخم ووزنها الكبير ، ومن موقع مواجهتها للعدو الاسرائيلي ، أقدمت منفردة على ما لم تجرؤ عليه أعرق الدول العربية رجعية ، فقبلت مصالحة هذا العدو برعاية أميركا ومباركتها. نقول « قبلت » ... والصحيح ان رئيسها السادات هو الذي طرق بابها وقصد اليها في دارها المغتصبة ، خافضا سلاحه ، رافعا الرايات البيضاء ، يتغنى بالسلام ، وينادي بالوفاق والوئام ونسيان الماضي بضغائنه ومآسيه ، منطلقا الى مستقبل كله ود وتعاون ورخاء ...

ومضى أنور السادات في مبادرته كما يعرف قراء « الآداب » الى نهايتها دون تردد أو خجل . وهو عند كتابة هذه السطور على وشك أن يوقع على معاهدة مصرية ـ اسرائيلية تنص على صلح كامل مع اسرائيل ، لم تحصل اسرائيل نفسها بالحصول على مثلها في يوم من الايام ، لانها تشتمل على حسن جوار وتبادل دبلوماسي وتعامل اقتصادي وتعاون ثقافي ، وتجعل باختصار من عدوي الامس اللدودين صديقين حميمين.

لا عجب اذا كان وقع هذا الانحراف الهائل ، الذي لا يستطيع أحد أن يعفّ عن نعته بالخيانة ، بالغا ما بلغ من الاعتدال والتسامح ، كوقع الصاعقة على رؤوس العرب . وكانت أسرع الدول العربية الى الفعل الدول الموصوفة بالثورية أو التقدمية ، وهي سوريا والعراق وليبيا والجزائر واليمن الديمقراطية ، ومعها بالطبع منظمة التحرير الفلسطينية .

تنادت هذه الدول الى اجتماع عاجل في طرابلس (ليبيا) للتشاور في أمر المبادرة الساداتية الاستسلامية. وقامت جبهة الصمود والتصدي ، دون اشتراك العراق الذي كان يطالب مبدئيا برفض القرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن الدولي ، لازالة آثار العدوان الاسرائيلي دون ازالة اسرائيل نفسها . وكان ما بينه وبين سوريا سببا آخر في عدم اشتراكه . لكن موقف العراق من التخاذل الساداتي لم يكن أضعف من موقف «الجبهة» ، وكان محسوبا منها دون أن يكون فيها .

ولم تختصم جبهة الصمود والتصدي مع أية دولة عربية تخلفت عن الانتماء اليها . كان قد كفاها ان ما من دولة جهرت بتأييد واضح لمبادرة السادات . ولعل وعي الجماهير العربية لعدالة القضية الفلسطينية وايمانها بقومية المعركة ضد الخطر الصهيوني ، كان لهما اثرهما في تحديد المواقف الرسمية أو عدم جلائها . وكانت حرارة المقاومة للسادات ترتفع مع اقتراب خطواته العجلى من هدفه الاخير ، وهو الصلح كيفما كان ومهما كلف...

كانت الخيانة تعدو ، بينما كان الشرف يسير على مهل ، والامبريالية تصطنع له العقبات في الطريق . ففي لبنان قام طابور خامس متحالف في السر والعلن مع اسرائيل ، وراح يورط قوات الردع العربية الموجودة فيه لمساعدته على استعادة أمنه وحياته الطبيعية ، في

معركة جانبية ، وادركت قوات الردع هـــذه ، المؤلفة بكثرتها الساحقة من عناصر الجيش السوري ، غرض المورطين ، فضربت بشدة ، وهي التي ما كانت تريد أن تضطر الى الضرب . لكن ما كـــان في وسع سوريا أن تضرب الطابور اللبناني الخامس (أو الاول) مع الحدود، لئلا تصطدم بالقوات الاسرائيلية في غير أوان . ولعـل هذا الوضع كان من أول البوادر للتفكير جديا بمصالحة تامة بين نظامي سوريا والعراق التوأمين . هذا الوضع ومعه مقررات كامب دافيد في الولايات المتحـدة ، تلك المقررات التي قذفت نهائيا بأنور السادات في أحضـان أميركا والصلـــح مع اسرائيل . وكانت خطـــوات بين العاصمتين الشقيقتين . وكانت لقاءات لانهاء الخـلاف العائلي والشقاق الاخوي . وخرج « ميثاق العمل » بين دمشق وبغداد ، « ميثاق بغداد العربي » الذي كان أروع اشراقة في ظلمة الليل الساداتي البهيم . اشراقة أحيت الآمال في النفوس ، وباغتت أعداء العرب ، وخصـوم التقدمية العربية . فاذا بالقطرين القوميين يخرجـــان بقرارات تنم عن نضج هذه الامة العربية على نار التجارب القاسية. قرارات خالية من كل ما هو جياش فياش... قرارات رجال دولة يحبون تاريخهم ويؤمنون بتراثهم ، لكنهم يعيشون روح العصر ، ويعرفون أبعاده وأعماقه ، ويحيطون بأساليبه ووسائله . لقد القوا أسس الوحدة ، بل لعلهم حققوا الوحـــدة دون كلمات كبرى ولا طنين ورنين . فحين تكون هناك لجنة مشتركة دائمة لتنسيق الشؤون العسكرية (الاولوية لهذه الشؤون في الوقت الحاضر) ولجنة للتكامل الاقتصادي ، ولجنـة لتوحيد برامج التعليم ، وحين يسمح لمواطني القطرين بالانتقـال ما بينهما دون حاجة الى جواز سفر ولا الى رخصـــة عمل ... لا يبقى الا القليل مما يقتضيه اتحاد فدرالي .

ان لميثاق بغداد السوري ـ العراقي آفاقا تتجاوز معالجة المرحلة الحالية بنكباتها الاسرائيلية والساداتية. انها نواة للوحدة العربية من صنف جديد تبذر في الارض العربية بعد أن أجدبت هذه الارض ويبست نبتة الوحدة الاولى بين مصر وسورية .

وبئست هذه الارض يوم تستعصي على توحيـــد الامة العربية توحيدا حـــديثا ، لا يذيب الاقليميـات ويقضي عليها ، بل يدعها تزدهر شريطة أن تؤلف باقـة واحدة ، بتعدد ألوانها وبتنوع ورد شذاها .

* * *

المفروض طبعا بعد « ميثاق العمل » بين بغـداد ودمشق ، أن تنضم الاولى الى جبهة الصمود والتصدي، حيث مكانها المناسب . لكن الذي لا شك فيه هو انـه لولا « ميثاق بغداد » السوري العراقي ، لما تم عقد قمة بغداد التي جمعت الشمل من الخليج الى المحيط ، ومن اليمين الى اليسار ، وأعادت التضامن العربي بشكـــل متين ومؤسف معا ، لان مصر بفعل رئيسها الســادات بقيت خارج العقد ، وهي التي طالما كانت واسطة العقد.

كانت هذه القمة بفضل الوفاق السوري العـراقي الذي أشرنا اليه أعلاه ، وبفضل تنظيم عراقي ممتـاز ، وبالتلبية الاجماعية من قبل الدول العربية كلها بما فيها فلسطين ، انجازا رائعا ان دل على شيء فهو هذا الحس القومي العربي الراسخ الذي يحاول بعضهم أن ينال منه أو يهزأ به ، وهو أصلب من الفرانيت والماس .

احـــدى وعشرون دولة على اختلاف مناخهـــا الجغرافي ، ونظمها السياسية ، خفت الى ضفـــاف دجلة، تتداول وتتشاور في أخطر امر صدمها فينهضتها الحديثة : انحراف قطر عربي عن الطريق المستقيم الذي اختطته الامة دفاعا عن ترابها وحقها وحريتها وشرفها .

الصقـــور والحمائم ... المتطرفون والمعتدلون ، استجابوا جميعا لدعوة العراق المكافح الـــذي ما انفك يطمح الى خوض المعركة رغم بعده عـن الميدان . خفوا وهم يدركون ان لا عاصم اليوم ، وان الخطر الاسرائيلي يتهدد حرياتهم وثرواتهم وحضارتهم وكل ما من أجـله تستحق الحياة أن تعاش .

واحمق أو مغرض من يتهمهم بالتشنج . ولعلهـم على شيء من التوتر ، وهم على حق في ذلك . لكـــن التوتر الخلاق هو غير التشنج المخدر ، صفة المتخاذلين والجبناء . انهم يستشعرون خطر انتقال أربعين مليون عربي مصري مـــن خندق العروبة الى خندق الاعداء ، وأربعين مليون زبـــون لمنتجاتهم وسلعهم وأضاليلهم . وقد صمم المؤتمرون على أن يضعوا حدا للمأساة ، على أن يطوقوها ويحصروا أضرارهـا حتى يصير في وسع الشعب المصري أن ينفض عنه نير السادات ، ويعود الى الحظيرة العربية ، يكافح مع المكافحين ، ويصبر أخيرا مع الصابرين ، وينتصر مع المنتصرين .

* * *

ما أعجب هذه الامة ، كيف تنمو وتتطور بسرعة ! لقد بحثت بكل دقة ، لكن عبثا ، عن ظـاهرة فورة ، عن حماسة فارغة ، عن كلام من فوق السطوح . كل شيء في خطبهم ، في تصرفاتهم ، في مقرراتهم ، كان وليد تفكير ناضج ، واتزان أكيد ، وواقعيـة صارخة ، لكن دون استخذاء ولا انهزامية . انهم رجـــال يحترمون أنفسهم ، ويقدسون حقهم ، ولا يستخفون بأعدائهم . وهم مصممون على الكفاح من أجل سلام عادل حقـا ، شريف حقا ، في نطاق القانون الـدولي ، والاستعـداد لاغلى التضحيات .

ان مطالبهم بسيطة وواضحة ، تتلخص في بضع كلمات : عودة الارض المحتلة عام ١٩٦٧ بما فيها القدس. تمكين الشعب الفلسطيني من اقامة دولته على أرضه . كذلك وسائلهم : لا معنى لدول عربية مواجهة وأخـرى

مساندة . فالجميع أمام الخطر الاسرائيلي واحد . ولا مفر من تعاون الجميع دون تمييز بغية الوصول الى الهدف . وكل يقدم أقصى ما يستطيع سواء في الانفس أو الاموال ، مع الالتزام بمقررات القمم العربية السابقة، لا سيما قمتي الجزائر والرباط .

* * *

والمؤتمر لم يعقد ضد مصر، حتى ولا ضد السادات بوجه خاص . لقد عقد لصيانة الحقوق العربية واستعادة ما ضاع منها ، أو أقصى ما ضاع منها . لكن ليس معقولا ولا مقبولا أن تبقى مصر عضوا سويا في جامعة الدول العربية ، وهي صديقة لاسرائيل . فيجب تجميد عضويتها في هذه المؤسسة . كذلك ليس معقولا ولا مقبولا أن تبقى عاصمة بلد عربي يتعاون مع العدو ، مقرا لجامعة الدول العربية ، فيجب أن ينقل الى مكان آخر (تونس مبدئيا) . وليس معقولا ولا مقبولا أن يقاطع العرب شركة أو هيئة تتعامل مع اسرائيل ، ويحافظوا على علاقات طبيعية مع شركة مصرية تفعل الشيء نفسه . لكن لن تكون هناك مقاطعة اقتصادية شاملة لمصر ، وذلك تحاشيا لتحميل الشعب العربي في مصر وزر نظامه الخائن .

وهناك ـ على الهامش كما قيل ـ وعد بمساعدات مالية تعين الشعب العربي في مصر على اعادة البناء . ومن البديهي ان مثل هذه المساعدات لا يمكن أن تأتي من مؤتمر هو في الاصل والفرع لمكافحة الخطر الصهيوني ، لبلد فيه من يغازل الصهيونية .

رب قائل يسأل :

وما الضمان لتنفيذ كل ما أوردت ؟

وجوابي أن لا ضمان الا حسن النية . فأنا حين أكتب لا أزعم الرجم بالغيب ، ولا أستند الى القيل والقال . ان اعتمادي كله على المقررات والتصريحات .

ومع ذلك . فهناك جبهة الصمود والتصدي التقدمية التي اشتد أزرها ـ أو سوف يشتد ـ بانضمام العراق . وهي بقواها البشرية ومواردها الطبيعية وصداقاتها الدولية قادرة على احباط كل مشروع امبريالي لسلام غاشم . فالغلبة هي أولا للفكر ، والفكر التقدمي لا ينهزم .

بيروت

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

★

- **ماركسية القرن العشرين**
  ترجمة نزيه الحكيم
- **منعطف الاشتراكية الكبير**
  ترجمة ذوقان قرقوط
- **البديل**
  ترجمة جورج طرابيشي
- **مشروع الامل**